الضحيـة

ـ هه هه صابر العرج ...

ـ واصل سيره وهو يندب حظه السيئ ويومه التعس، الذي خرج فيه أول يوم إلى هذه الدنيا، التي يحس أنها أصبحت في نظره أضيق من سم الخياط، هو متردد لا يدري ما يفعل هل يذهب إليه؟ ويطرق بابه أو يعود أدراجه إلى كوخه، لكنه شقيقه وهو بحاجة إلى نقود ينفق منها.

ـ يكلم نفسه هاتف يرد عليه:

ـ اذهب إلى أي صديق آخر أفضل لك منه.

ـ لكنه أخي.

ـ حتى وإن كان كذلك ألا تذكر كيف تنكر لك بالأمس؟

ـ أجل أتذكره.

وبينما هو واقف شارد الذهن، إذا ببعض الصبية يعترضون طريقه صائحين فيه بسخرية:

وين ماشي يا العرج؟

ـ كطعنة خنجر حاد اخترقت تلك الكلمة جسده في عنادٍ وتحد:

ـ وإيش دخلكم أنتم؟

ـ يقاطعه أكبرهم:

ـ مازالت غير هذي حتى أنت يا العرج ترد علينا.

كان يقف حائرًا بينهم، تهامسوا عليه لضربه والهجوم عليه، ولكنهم ما أن هموا بذلك، حتى أقبل نحوهم الحاج عقيلة، اقترب منهم صاح فيهم:

ـ هيا امشوا ألعبوا بعيد وخلوا الراجل عنكم...

التفت بعضهم إلى بعض في خوفٍ، وولوا الأدبار هاربين ونجا هو منهم بأعجوبة عائدًا أدراجه نحو كوخه الصفيحي دخل غرفته، تمدد على سريره الحديدي، هرب من شجونه وأحزانه، ورحل بفكره بعيدًا، مع تلك الجميلة حبيبته، التي سحرته بابتسامتها الجذابة، وقوامها الرشيق، وعينيها الواسعتين

وشعرها المُسدل على كتفيها كخيوط حرير ذهبية، هو يعشقها فهل هي تبادله العشق؟ إنه لابد أن يلتقي بها في الغد ليصارحها، ويبوح لها بغرامه لكنه أعرج وما دخل ذلك في العشق هل حرام عليه أن يحب وتكون له محبوبة، وأيضًا فقير وعالة على غيره، لن تبقى هكذا دائمًا سوف تحصل على عمل، ثم راح في سبات عميق.

مع صباح اليوم تناول كسرة خبز مع كوب الشاي، ولبس حذاءه الوحيد، نظر في وجهه في قطعة المرآة، ثم أوصد باب كوخه، وسار بخطواته متعثرة وسط شارع الحطية المترب، حيث المحلات الصغيرة تصطف على جانبيه، اقترب من كوخها كانت بردائها الوردي الزاهي، والخاصة البيضاء تتدلى في خصرها، تكنس التراب بمكنسة أمام كوخها، اقترب منها كانت الابتسامة على شفتيها، بعد أن حياها نظرت إليه نظرة غريبة قائلة:

ـ تفضل أيش تريد؟

استجمع شجاعته وكلماته المبعثرة قائلًا:

ـ أنا بصراحة يا زهرة غاوي فيك.

ردت قائلة:

ـ فيا أنا.

ـ ونبيك شريكة حياتي.

قهقهت في سخرية لاذعة وبصوتٍ عالٍ بادرته:

ـ أنا نزوجك أنت مازالت غير هذي.

مما سمعه لا يكاد يصدق أذنيه فيما سمعه، صدمته بإجابتها القاسية، احتقن وجهه تفصد جبينه عرقًا انسحب من أمامها قائلًا:

ـ إن كان أنت لا تريدني لماذا تخدعيني في كل هذه المدة.

لم ترد هي عليه، اقفل عائدًا نحو كوخه وهو يجرجر قدميه بما تبقى له من جهد، أحس بأن آماله قد ضاعت، وتلاشت أحلامه غمغم في حزن وضيق:

ـ اغفر لي يا رب لقد ضقت ذرعًا بهذه الحياة.

كثير ما اشتكى لصديقه، من مضايقة الصبية له وسخريتهم منه كان يقول له وقلبه يتفطر ألمًا وحزنًا:

ـ إيش يقولوا لك عرج خليهم عنك لا تهتم بكلامهم.

ـ وحتى خوي اللي من دمي ولحمي يستعار مني.

ـ أنت ما فيك ما يعيبك خلك منه، وإن كان تبي حاجة أنا صاحبك وخوك في نفس الوقت.

مضت أيام لم يره أحمد، انطلق إليه في كوخه يبحث عنه، طرق الباب عدة طرقات لكن لا حياة لمن تنادي، حدق بعينيه في داخل الكوخ من إحدى الفتحات الصغيرة، يلمح الغرفة التي ينام فيها صديقه مفتوحة الباب، طرق من جديد على النافذة لكن ما من مجيب.

ـ أين ذهب صابر في هذه الظهيرة؟

ـ دفع النافذة بقبضته انفتحت، وما أن أطل منها الصديق حتى هاله ما رأى، اصفرت الدنيا أمام عينيه، أصيب بالذعر

والفزع، صديق عمره جسده معلق يتدلى من السقف، مشنوقًا من رقبته في حبل وتحته صندوق محطم، أسرع الصديق وفتح الباب بقوة وعنف، دخل إلى الكوخ وهو يغمغم رحمك الله أيها الصديق لماذا فعلت بنفسك كل هذا؟